

استلهام التراث الأسطوري الفرعوني في مسرحية توفيق الحكيم "إيزيس"

*Inspiring faraoniclegendary heritage in the play
of Taoufik El Hakim "Isis "*زاوي أسماء¹¹ جامعة أحمد بن بلة – وهران 01، (الجزائر)، zaouiasma@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2019.12.31

تاريخ القبول: 2019.11.21

تاريخ الإستلام: 2019.05.28

ملخص

إنَّ الأسطورة هي الفتحة السحرية التي نفذ منها الأديب توفيق الحكيم الذي اقترن اسمه غالبا-بالإبداع المسرحي-ليعالج من خلالها قضايا عصره على اختلافها وتنوعها، وجعلها مصدرا لإلهامه، وبلور من خلالها مختلف الرؤى الفنية والجمالية، فجاء إنتاجه غزيرا بألوان عديدة، جمع فيها بين ثقافته وتراثه العربي الأصيل و ثقافة الغرب، كان من هذا الإنتاج الغزير العمل المسرحي، الذي نهل فيه من التراث الأسطوري الفرعوني ووظفه في آثار عدّة، اخترنا منها مسرحية "إيزيس".

الكلمات المفتاحية: الأسطورة؛ أوزيريس؛ إيزيس؛ التراث الفرعوني؛ عمل مسرحي

Abstract

The legend is a magic opmnig which the author Toufik Hakim who join his name with theatre creation to treat issues of his period which are so different and diverse to be the source of inspire and he manipulated. different art vision and beauty as a consequence his production becomes so rich works.he gathered its with his culture and the original Arabic heritage and also the oriental culture,such as the theatre's work.which he took from the faraonic heritage,he uses it in different works,we choose from it the theatre « Isis ».

Keywords: Legend ; Osiris ; Isis ; Faraonic heritage ; Theatre work .

¹ المؤلف المرسل: زاوي أسماء، الإيميل: zaouiasma@yahoo.fr

مقدمة:

يعتبر عالم الأساطير منبعاً للخيال، ومعادلاً موضوعياً يعبر من خلاله الكاتب عن قضايا عصره؛ وكان هذا منطلق توفيق الحكيم الذي أسقط هذا العالم على عمله المسرحي، والمتمثل في "إيزيس" المستوحى من الأسطورة الفرعونية، والتي ألفت بضلالتها على الكاتب وشقت سبيلها إليه ومثلت اغترافه من التراث الفرعوني القديم، وعلى هذا الأساس جاءت هذه الدراسة لاستجلاء مظاهر التوظيف الأسطوري عند الحكيم من خلال الإجابة عن الأسئلة التالية: لماذا عالج الحكيم هذا الموضوع؟ وكيف كان تعامله مع العناصر القديمة من جهة، والعناصر التي أضافها إلى الصورة القديمة من جهة أخرى؟ وأين تركّز الصراع في مسرحية "إيزيس" وما الغاية منه؟ ولتحقيق ذلك وجب الوقوف أولاً على المفهوم اللغوي والاصطلاحي للأسطورة.

1. تعريف الأسطورة:

1.1. لغة:

جاء في لسان العرب لابن منظور في تعريفه للأسطورة قائلاً: «سَطَر: السَطَرُ والسَّطَرُ: والجمع من كل ذلك أَسْطَرٌّ و أَسْطَارٌ وأَسَاطِيرٌ، عن اللحياني، وسُطُورٌ، وقال الزجاج في قوله تعالى: "وقالوا أساطير الأولين"، خبر لابتداء محذوف، المعنى وقالوا الذي جاء به أساطير الأولين، معناه سَطَرَةُ الأولون، وواحدُ الأساطير أَسْطُورَةٌ، كما قالوا أُحْدُوثَةٌ وأَحَادِيثُ، الأساطيرُ: الأَبَاطِيلُ، والأساطيرُ: أحاديث لا نظام لها، وأحدتها: إِسْطَارٌ وإِسْطَارَةٌ، بالكسر، وأُسْطِيرٌ وأُسْطُورَةٌ، بالضم، وقال قوم: أَسَاطِيرُ جمعُ أَسْطَارٍ وأَسْطَارٌ جمعُ سَطَرٍ، وقال اللحياني: واحدُ الأساطير أَسْطُورَةٌ، وسَطَرُها: أَلَفْها، وسَطَرٌ علينا: أَنَا نَا بالأساطير، ويقال سَطَرَ فلانٌ علينا يُسَطِرُ إذا جاء بأحاديث تشبه الباطل، ويقال سَطَرَ فلانٌ على فلان إذا زخرف له الأقاويل ونَمَّقَها، وتلك الأقاويلُ الأساطيرُ والسُّطُرُ»¹.

وعبد النور جبور يقول عن الأسطورة «سَطَرَ سَطَرًا، كتب (أرامية) سَطَرَ كتابًا، رسالة، سَطَرَ «ج» سَطُورٌ وأَسْطَر، خط مستقيم على الورق، خطَّ سَطَرًا مجموعة كلمات مكتوبة أو مطبوعة يتبع بعضها في صف واحد (أرامية)... أساطير: أباطيل وأحاديث عجيبة»².

يتضح ممَّا سبق أنَّ الأساطير عند العرب جاءت بمعنى الأباطيل، والأحاديث التي لا نظام لها، والتي تبتعد عن الحقيقة، وتقرب من الأكاذيب والتَّرهات.

1.2. المفهوم الاصطلاحي للأسطورة:

الأسطورة في الفكر الغربي: قيلت عدّة آراء لباحثين ومفكرين غربيين حول تعريف الأسطورة من ذلك ما نقله لنا عبد الباسط سيدا الذي جاء بقول «مالينوفسكي الذي رأى أنّها ركن أساسي من أركان الحضارة الإنسانية، تنظّم المعتقدات وتعزّزها، وتصور المبادئ الأخلاقية وتقوّمها، وتضمن فعالية الطقوس وتنطوي على قوانين عملية لحماية الإنسان، ويرى كارل غوستاف يونغ أنّ الأسطورة تنير جوانب النفس الإنسانية، وأنّ المجتمع الذي يفقد أساطيره بدائياً كان أم متحضراً يعاني كارثة أخلاقية تعادل فقدان الإنسان لروحه، أمّا الفيلسوف الألماني أرسنت كاسيرر فيؤكد أنّ

الأسطورة تمثل قوة أساسية في تطوّر الحضارة الإنسانية، عبّر الإنسان من خلال رموزها عن اهتماماته وتطلّعاته وقد وجد أنها تكوّن مع اللّغة والفنّ والدين صورا حضارية، تبدعها طاقة الإنسان الرمزية³.

المتأمل لهذه الأقوال، يلمس بوضوح مدى ارتباط الأسطورة بالنفس الإنسانية، وتطويرها لمختلف العلوم والحضارات الإنسانية، ومحافظةها على خلق الإنسان، والتعبير عن تطلّعاته واهتماماته كان بدائيا أو حضاريا.

أما في الفكر العربي فإنّ الأسطورة كانت ولا تزال «الوسط الذي واجه فيه الإنسان مشكلاته الكبرى والدائمة، كالموت والمصير والشّر وأصل الأشياء غايتها ومعناها، وكانت بالنّسبة له كلّ شيء فالأسطورة إذن نظام فكري متكامل، استوعب قلق الإنسان الوجودي، وتوقه الأبدي لكشف كلّ ما هو غامض في إطار محيطه الخاص»⁴.

استنادا على ما سبق تتّضح العلاقة التي تجمع بين الإنسان و الأسطورة، فبفضلها يعبّر عن منطقته وأسلوبه في المعرفة، فهي أدواته في التفسير والتعليل؛ في أدبه وشعره وفنّه، فقد شكّلت الانعكاس الخارجي لواقعه النفسي الداخلي.

ومن هنا فإنّ الأسطورة تقدّم لصاحبها «نوعا من الوحدة الكونية الشاملة، وتحقّق المصالحة بينه وبين العالم الخارجي»⁵.

وفي نفس المضمار نجد أحمد شمس الدّين الحجاجي يذهب في حديثه عن الأسطورة قائلا: «الأسطورة بما تملكه من قدرة على التعبير عن معتقدات شعب من الشعوب تظلّ لها الحيوية والنفاذ عبر الأجيال، بالرغم من تغير المعتقدات إذ تظل إشعاعاتها وإحياءاتها باقية تنفذ لكلّ نفس بمعنى خاص، وإن اشتركت في وحدة عامة إزاء فهم النّاس لها»⁶.

وعلى هذا تخلّى الكتاب عن استعمال اللّغة بكيفيتها اليومية المعتادة، التي تفقد تأثيرها، والدّهاب والميول إلى استعمال لغة رمزية تحت إطار الرّمز الأسطوري الذي يعتبر «بمثابة مناجاة للأداء اللّغوي، يستبصر فيه صاحبه بواسطة التشكيلات الرمزية إمكانات خلق لغة تتعدى وتتجاوز اللّغة نفسها»⁷.

2. أسطورة إيزيس وأوزوريس:

كانت إيزيس زوجة ملك مصر حاكم الوجه القبلي والبحري "أوزيريس"، وكان هذا الملك عادلا رحيمًا، يحبّه شعبه. كان هذا الحبّ سببا في نقمة أخيه "ست" عليه، فاتّفق أن أقام هذا الأخ وليمة دعا إليها أوزيريس وهناك استطاع أن يحتال عليه، فيضعه داخل صندوق أقفله بإحكام ثمّ ألقي به في الفرع الثاني من النّهر، سار الصندوق مع التيار حتى وصل ببلوس. وهناك حمل الصندوق إلى قصر الملك فنمت عليه شجرة ضخمة.

علمت "إيزيس" بوحى من الشائعات المقدسة أن الصندوق توجه إلى ببلوس فأخذت طريقها إليها في عزم وإصرار لتعيده إلى مصر، وعندما وصلت إلى ببلوس وجدت ابن ملكها مريضا فقامت بعلاجه حتى شفي فحصلت على الصندوق وعادت به إلى مصر، وما إن وصلت "إيزيس" إلى أحراش الدلتا حتى أخرجت الجثمان من الصندوق واستلقت عليه، وحملت منه.

عثر "ست" على جثمان أخيه وقام بتمزيقه قطعاً بعدد أقاليم مصر وأخفى كل قطعة في إقليم من هذه الأقاليم وألقى بأعضائه التناسلية في النيل. جاءت إيزيس مصر بحثاً عن أشلاء زوجها وتمكنت من العثور عليها باستثناء الأعضاء التناسلية التي كانت أسماك النهر قد أكلتها.

روحت "إيزيس" بأجنحتها فهب الهواء ودبت الحياة في الجسم الميت ولما كان من الصعب عليه أن يحيا فوق الأرض حياته الأولى وأن عليه أن يحيا ثانية، لذا فقد صار ملكاً للموتى بعد أن كان ملكاً للأحياء.

هربت "إيزيس" من وجه "ست" مستخفية بحملها في أحراش الدلتا وهناك وضعت مولودها "حوريس"، هددت الأخطار هذا الطفل ولكّنه نجا بفضل أمّه حتى كبر وكان عليه أن يطالب بوظيفة أبيه من مغتصبها "ست"، فلجأ إلى محكمة التاسوع بعين شمس والتي يرأسها "رع"، استمرت المحاكمة مدة ثلاث وثمانين سنة، لم يتخذ فيها التاسوع حكماً.

ودار قتال رهيب فقد فيه "حوريس" إحدى عينيه وتشوه فيه "ست" وكانت إيزيس تقف في كل ذلك وراء ابنها تعززه وتحميه وتدافع عنه حتى انتصر وهناك قادتته إلى قاعة جب فحياء الآلهة المجتمعون وأعطى عرش أبيه⁸.

وهناك نصوص كثيرة "في متون الأهرام تذهب إلى أن إيزيس وأوزوريس وست set كانوا أعضاء في أسرة بشرية ويروي بلوتارك أن الإله الخبيث الشرير ست قام بقتل شقيقه أوزوريس وألقى بتابوت يحمل جثته في نهر النيل. غير أن الزوجة الوفية "إيزيس" استطاعت أن تمسك بالتابوت وأن تضعه في مكان خفي لكن ست الشرير عثر على التابوت و قطع جسد "أوزوريس" إلى أشلاء ووزع كل شلو في مكان مختلف عن مكان الشلو الآخر في طول البلاد وعرضها. لكن إيزيس قامت بجمع الأشلاء المبعثرة و بفضل مساعدة الإله تحوت استطاعت أن تستعيد زوجها وتعاشره معاشرة جنسية فتحبل بطفل هو الذي سمى باسم "حورس Horus" وعملت على تربيته لكي ينتقم لأبيه من عمه الشرير"⁹

3. البناء الفني لمسرحية "إيزيس:

كانت الأسطورة المعين الأول للآداب على اختلافها وتنوعها، والأرضية الأولى التي انطلقت منها خطا الكتاب لبناء أعمالهم الفنية والأدبية. ولجأ بذلك الأدباء إلى عالم الأسطورة الرحب وأدلى كل واحد بدلوه في الاعتراف منه. واستلهم رموزه ومكوناته ودلالاته في التعبير عن موضوعاتهم، وترجع هذه الصلة بين الآداب و الأسطورة «لاشتراكهما باللغة، ثم صدورهما من مصدر واحد هو المتخيل .. ولعلّ انجذاب الأديب نحو استثمار الأسطورة في نصّه الإبداع، يعزى إلى ما تتمتع به من بناء فني راق وحكاية ساحرة واشتمالها على عناصر التشويق، فضلاً عن البعد الإنساني الواضح في مضمونها»¹⁰.

كثير هم المؤلفون الذين اتخذوا من الأسطورة مادة لأعمالهم الإبداعية والمسرحية نظراً للمرونة والحيوية التي تتمتع بها الأسطورة، وتوفيق الحكيم واحد منهم، فقد كانت الأسطورة الينبوع الذي استقى منه مختلف أعماله المسرحية فأدخلها في بنية خطاباته لتحقيقها العمق الذي يريده لتجربته، والخروج من الخطاب المباشر إلى الإيحاء، وعليه فتح النص على قراءات متعددة، وعلى هذا الأساس يتحدث تسعديت آيت حمودي عن تعامل الحكيم مع الأسطورة فيقول: "يعتبر استخدام الأسطورة كأساس تقوم عليه المسرحية في الحياة المعاصرة، تطوراً له أهميته في

أدب القرن العشرين، ولا شك أنّ وجود مثل هذه الظاهرة في الأدب العربي، والمسرحي على وجه الخصوص ممثلة في آثار توفيق الحكيم¹¹.

من هنا جاءت أعمال توفيق الحكيم متنوعة تنوعاً كبيراً بتنوع مصادره، فمنها ما يشمل القصص المستمدة من القرآن والتراث الإسلامي، كما هو الحال في مسرحية أهل الكهف، وسليمان الحكيم وشهرزاد، أو المستمدة من الأساطير الإغريقية، كما هو الحال في مسرحية بجماليون، والملك أوديب، و براسكا، ومن الأساطير الفرعونية في إيزيس، ومن الأساطير المستمدة من الفلكلور الشعبي كما هو الحال في مسرحية يا طالع الشجرة¹².

وعليه جاءت هذه الدراسة لتقف على أسطورة إيزيس وأوزوريس الممثلة في عمل الحكيم المسرحي "إيزيس"، حيث تعتبر هذه الأسطورة ذات أصول فرعونية عرفها الإنسان المصري القديم وقد تناول "ثلاثة من مؤلفي المسرح المصري المعاصر أسطورتين من الأساطير المصرية القديمة لتكون موضوعاً لمسرحياتهم، هاتان الأسطورتان هما أسطورة إيزيس وأوزوريس وأسطورة التكوين، وكانت المسرحيات الثلاث هي: مسرحية "إيزيس" الحكيم، و "أوزوريس" لباكثير، و "أصل الحكاية" لبكر الشرقاوي¹³.

"إيزيس" مسرحية نشرها الحكيم سنة 1955 م قدّمها في ثلاثة فصول، تضمن الفصل الأول أربعة مناظر، وجاء بمنظرين في الفصل الثاني، وختم بالفصل الثالث القائم على ثلاثة مناظر.

حيث تحكي هذه المسرحية عن طيفون الذي غدر بأخيه أوزوريس، إذ أقام وليمة دعا إليها أخاه وعدداً من أعيان البلاد، وفي أثناء الوليمة أحضر صندوقاً فخماً مرصعاً بالأحجار الكريمة، ثم أعلن أنّه سيقدمه هدية لمن يلائم الصندوق قدّه، وجرب الصندوق عدد من الحاضرين لكن لم يناسب أحداً منهم، حتى جاء دور أوزوريس فإذا به مفصل تماماً على قدّه، وإذا بأتباع طيفون يغلقون الصندوق عليه وهبوا لإلقاء الصندوق في النيل¹⁴ وبقيّة الأحداث سنعرضها تباعاً ضمن فصول المسرحية

ولتكن البداية مع الفصل الأول:

نشهد في المنظر الأول من هذا الفصل حواراً تبادلته أطرافه بعض الفلاحات وهن ذاهبات قبل شروق الشمس بما يحملن إلى السوق

الفلاحات: (للفلاحة) لماذا رجعت؟

الفلاحة: شيخ البلد على باب السوق خطف مَيّ أوزتي....

فلاحة عجوز: خطفته التماسيح! أهو هناك الساعة؟!

الفلاحة: ما من أحد يفلت اليوم من يده

العجوز: معي بطة أريد أن أشتري بها قمحاً.

الفلاحة: لا تذهبي.

العجوز: ماذا جرى اليوم في البلد؟! ما كان يحدث هذا من قبل!

فلاحة: حتى الشكاوى اليوم لا تفيد، لقد لجأت جارة لي إلى الكاتب توت، فحرّر لها شكوى منذ أسبوع وما من صدق!¹⁵

وضع الحكيم القارئ بهذا الحوار منذ بداية المسرحية في الأجواء المتوترة التي تفوح منها رائحة الفساد، فالظلام يسود القرية وحالة الظلم متفشية، فشيخ البلد يسرق "أهلها فيستولي على الإوز والبط من الفلاحات أي أن حاميا حرامها، وتلك أقصى قمة أو أسفل هاوية يمكن أن يصل إليها الفساد"¹⁶

ليرصد لنا بعد ذلك الصراع القائم بين الملك أوزوريس "رجل العلم ومخترع الشادوف، ومشيد الجسور والقناطير"¹⁷ وبين طيفون شقيقه وهو "المتصرف الحقيقي الذي يدير من قصره كل شؤون المملكة"¹⁸ وقد مهد الحكيم لهذا الصراع باختفاء أوزوريس وبحث إيزيس عنه

المرأة: توت! أنجدي!

توت: تكلمي وأسري! ماذا خطف منك؟ ماذا فقدت

المرأة: زوجي¹⁹

ليواصل الحكيم قوله على لسان توت قائلاً:

توت: من هو...

المرأة: أوزيريس.

توت: ماذا أسمع؟!

المرأة: نعم..... هو أوزيريس.

توت: أوزيريس الملك؟!

المرأة: (تخلع نقابها) نعم زوجي.

توت: (وهو ينظر إليها) إيزيس²⁰

وفي ثنايا هذا الحوار الجامع بين توت وإيزيس يقدم لنا الحكيم بعض مميزات أوزيريس

توت: ماذا حدث لأوزيريس؟! تكلمي.

إيزيس: خرج من قصره البارحة ولم يعد حتى الساعة!

توت: هذا أمر لا أحسبه يدعو إلى كل هذا القلق لعلّه شغل باختراع جديد، أو كشف أخير، واستغرقه العمل فني نفسه ونسي الوقت، هذا يحدث له أحياناً... وأنت تعلمين ذلك حق العلم، إنه في هذه الأيام، كما بلغنا مشغول بابتكار ساقية جديدة تخرج من الماء أضعاف ما تخرج السواقي القائمة. من يدريك؟.. قد يكون الساعة في مكان ما على النيل يجري تجربة من تجاربه²¹

ومن خلال هذا يظهر أوزيريس بصورة "العالم المسالم الذي يقوم باكتشافاته واختراعاته"²² إلا أنه انشغل بها

وترك الحكم لأخيه طيفون الذي كاد له المكائد وكان سببا في اختفائه

إيزيس: لا.. لم يذهب إلى عمل من أعماله، لقد دعاه أخوه طيفون إلى وليمة عشاء... وقد ذهب بمفرده إلى قصر أخيه.

توت: وهل سألت عنه في هذا القصر؟

إيزيس: سألت، فأظهر لي أخوه الدهشة، وقال لي إنه غادر القصر في منتصف الليل، ووعدني بأن يأمر بالبحث عنه في كل مكان²³.

وعلى وتيرة الخوف واللهفة والبحث من قبل إيزيس بإصرار وعزيمة واستغلالها كل السبل بم في ذلك السحر توت: تلجئين إلى السحر؟

إيزيس: ألجأ إلى كل وسيلة تدلني على مكان زوجي²⁴!

تواصل إيزيس البحث عن زوجها فتجاهد "لتعرف مصيره. وهي في بحثها عن الحقيقة تجتاز كل دروب المعرفة ووسائلها، فتبدأ بالسحر، أو المعرفة الفطرية الغيبية، لترسو على الإيمان، قبل أن تهتدي إلى مصدر المعرفة الحقيقية، إلى الذات المدركة الواعية"²⁵

وينهي بذلك الحكيم منظره الأول لبدأ الحكيم منظره الثاني وهو يقدم إلى القارئ طيفون وهو "اسم لإحدى الشخصيات الأسطورية الشريرة في أساطير اليونان القدماء"²⁶

وعليه ينتهي هذا الصراع بانتصار طيفون "وهكذا يغيب رجل العلم في المجهول، وتكون الغلبة للحاكم المتسلط، فينتهي الصراع باندحار العلم أمام السياسة، لتغرق الرعية في البؤس واليأس"²⁷

وتبدأ أحداث المنظر الثالث بإعلان طيفون حاكمًا وتقديمه للشعب الذي صاح بالنصر لطيفون في حين شيخ البلد حذر سكان القرية من امرأة مجنونة ساحرة تبحث عن زوجها، من باب إضعاف إيزيس فهي الوحيدة التي تتعب وتتكدب المشاق بحثًا عن زوجها، ليطل علينا المنظر الرابع وقد وصلت فيه إيزيس إلى نبأ صندوق يسبح في النيل التقطه أهل مركب.

إيزيس: إلى أين رحل؟... إلى أين؟

الملاح: خرج هذا المركب إلى البحر ميمماً شطر ببلوس.

إيزيس: ببلوس.

الملاح: نعم ... مملكة ببلوس ألا تعرفين أن تقع مملكة ببلوس²⁸؟!

أحداث الفصل الثاني:

تلتقي إيزيس بعد عشاء أوزيريس الذي أخبرها عن طيفون وما قام به، فيذهبها إلى ملك ببلوس وعندها يتم التعرف على شخصية أوزيريس الحقيقة فهو ليس من العبيد .

إيزيس: زوجي هو أوزيريس

الملك: مأخوذ في الدهشة أوزيريس ... ملك بلاد مصر...

إيزيس: نعم، وأنا زوجته إيزيس.

الملك: (مأخوذاً) الملكة !

إيزيس: لم أعد ملكة ولم يعد زوجي ملكاً... فقد اغتصب أخوه طيفون الحكيم ...²⁹

تغادر إيزيس وأوزوريس ليستقرا في بيت منعزل ويتخفيا هناك مع مطلع المنظر الثاني، وهناك ينجبا طفلهما وأسمياه حوريس أين مكثا هناك ثلاثة سنوات بعيداً عن طيفون وهناك حول أوزوريس الصحراء جنة ولقبه الناس من حوله بالرجل الأخضر وهذا كشف عنه الحكيم في حوار دار بين مسطاط وتوت الذي يقول: يسمونه الرجل الأخضر.

مسطاط: لأنه حول صحراءهم إلى خصب... رأيته بعيني وهو يعمل معهم ويعلمهم... ثم أتبعته في عودته إلى بيته هذا... ثم رأيته هي...

توت: (همسا) إيزيس!³⁰

ليختم الحكيم أحداث الفصل الثاني بمقتل أوزوريس.

إيزيس: ذبحوه!

الفلاح: أمام أعيننا... بخناجرهم.

الفلاحات: (نائحات) قطعوه.

الفلاح: نعم قطعوه إربا.. ووضعوا كل عضو من أعضائه في كيس و حملوا الأكياس إلى قواربهم ثم مضوا نحو الجنوب.

إيزيس: نحو الجنوب....

فلاحون: صحننا فيهم وحاولنا منعهم فشرعوا في وجوهنا الرماح....

الفلاحات: (نائحات) نعم قتلوه... قتلوا الرجل الطيب... الرجل الأخضر... لن يخضر لنا بعده عود... لن يطلع عود... وستجف عن الأرض العيون... لن تجف عليه منّا العيون (يبكين صائحات)³¹

إنّ إيزيس استطاعت استرجاع زوجها بعد اختفائه الأول وقد خرجت في رحلة شاقة من أجله "وهي هنا رمز للسعي الجاد الهادف، والاختيار الحرّ لبلوغ هدف سام، دون تخاذل"³²

عرض الحكيم شخصية إيزيس وقارنها ببنيلوب اليونانية ففضلّ "إيزيس التي لم تكتف بالجلوس في بيتها وانتظار زوجها الغائب كما فعلت بنيلوب وإنما قامت تبحث عنه وتناضل، وتتعرض للأخطار، فالوفاء عند بنيلوب هو وفاء سلبى أما الوفاء عند إيزيس هو وفاء إيجابي"³³

لتدخل بذلك إيزيس مرحلة جديدة ممثلة في الفصل الثالث و الأخير

الفصل الثالث:

مثل هذا الفصل رحلة إيزيس التي قادتها من أجل الانتقام لزوجها، فتحتفي بابنها حوريس عن الأنظار إلى أن شب واستكمل قوة شبابه وبلغ السابعة عشرة من عمره، وطيلة هذه المدة كانت تحثه على الأخذ بثأر أبيه الخير الذي غدر به طيفون، فترى أن الشر لا يمكن أن يهزم إلا بنفس وسائله فتعد شيخ البلد برشوة كبيرة من حلها المدخرة³⁴ تقول: إيزيس: اسمع! أنت تعرف أنه كان لي ذهب كثير وحلي... تركتها في القصر يوم خرجت أبحث عن زوجي شيخ البلد: أعرف ذلك... لقد استولى طيفون على هذا الكنز ولا يزال هذا الشحيح محتفظاً به حتى الآن...

إيزيس: لك نصفه

شيخ البلد: "يفرح" نصفه!!³⁵

تدفع إيزيس ابنها الشاب لبيارز طيفون غير أنّ الابن يهزم أمامه، ويوشك أن يُقتل لولا تدخل شيخ البلد الذي نصح طيفون بأن يترك للشعب الحكم على الفتى المتمرد، واجتمع الشعب في هيئة محكمة وأنكر طيفون أن يكون حوريس ابنا لأخيه الذي مات غرقا منذ سنوات وطعن إيزيس في شرفها، وطلب من الشعب إعدام حوريس، فأوشك الشعب أن يضلّل لولا وصل في آخر لحظة ملك بيبيلوس، ليؤيد رواية إيزيس في أنّ أوزيريس لم يمت غرقا بل انتشله البحارة داخل صندوق وسرد كلّ الأحداث.³⁶

الشعب متسائلا: أوزيريس!؟

الملك بيبيلوس: نعم... أوزيريس الذي ألقى في نيلكم وطرد من بلادكم وجاء به إلى قصري الملاحون فباعوه لي.

الشعب: صدقت إيزيس إذن.

ملك بيبيلوس: صدقوا هذه السيدة في كل ما تقول... فهي من أشرف نساء الأرض.

الشعب: أوزيريس إذن لم يمت غرقا!؟

ملك بيبيلوس: لقد خرج من بلادنا صحيحا معفى معززا مكرما في صحبة زوجته إيزيس، منذ نحو ثمانية عشر عاما وعلمت بعدئذ بقليل أنّهما أنجبا ابنهما حوريس³⁷

وبإعلاء راية الحقيقة يختفي طيفون هاربا متسللا في حين ذهب الشعب إلى حمل حوريس فوق الأعناق ليجلس على عرش أبيه المغتصب

حوريس: أعطوني رمحي ... ولا تدعوا المجرم يهرب!... أريد الانتقام لأبي.

إيزيس: (لابنها حوريس) لا تلوث يدك النقية يا بني بدمه الدنس ... حسبنا الشعب وقد عرف أخيرا الحقيقة

توت: (لإيزيس) كم من الجهد بذلت في حياتك بإيزيس كي يعرف الشعب الحقيقة .

إيزيس: ليس مهمني الجهد ... كل أمني أن يكون زوجي أوزيريس في خلوده مصافحا عنا، راضيا عما فعلنا³⁸

ويسدل الحكيم بذلك ستار عمله المسرحي هذا وقد عبّر من خلال عن "الصراع على الحاكم وتناقض الروى

وبين الخير والشر، السلطة والتسلط، المهارة والمكر، العدالة والظلم، العلم والسياسة، ففتحت بمغزاها البعيد كوى

نافذة على هموم وقضايا، تؤرق الإنسان، في كل زمان ومكان"³⁹

وهنا أود أن أفسح المجال للكاتب ليقول كلمته ،فهو أدرى بشعاب الموضوع في كليته وذلك حين ألقى بعض

الأضواء على مختلف الجوانب الكامنة من وراء هذا العمل الفني إذ يقول "ما هي حقيقة الصراع بين أوزيريس

وطيفون؟ ربّما كان في نظر المعاني صراعا بين رجل يعرف كيف يخدم الناس، ورجل يعرف كيف يستخدم الناس. أي

بالمعنى العصري أيضا: بين رجل العلم ورجل السياسة."⁴⁰

وعن نهاية عمله المسرحي هذا الذي كانت الحقيقة أساسه ومطمحه الأول والأخير ويقول الحكيم في ذلك "قوة

الشعب مثل الشمس لا أثر لها إذا تفرقت أشعتها وتشتت ولكنها تعمل عملها إذا تجمعت وتكتلت وتنظمت.. لذلك كانت

الخطة النهائية لإيزيس في هذه المسرحية، هي الوصول بأي ثمن إلى خداع طيفون وإقناعه بالاحتكام إلى الشعب المتجمع لتعرض أمامه الحقائق كي يصدر رأيه الحر⁴¹

إذن الحكيم هنا اعتمد على أسطورة إيزيس وأوزوريس التي تركز في "الديانة المصرية القديمة على الصراع بين الخير الذي يمثله أوزوريس إله النماء والخصب والزراعة، وبين الشر الذي يمثله أخوه ست الإله المتغطرس الذي لا يتورع عن فعل أي من أجل تحقيق أغراضه الدنيئة، كما ترمز هذه الأسطورة أيضا إلى فكرة البعث التي كان يؤمن بها قدماء المصريين، وخاصة بعث الخير الذي لا يموت كما لم يموت أوزوريس الذي عاد إلى الحياة بالرغم أن أخاه الشرير قتله وقطعه إربا إربا"⁴²

والحكيم في اغترافه من هذه الأسطورة الفرعونية خلط مسرحيته بالنطقين المصري القديم الشائع بين الدارسين المصريين لتاريخ مصر القديمة والنطق اليوناني، فبينما يسمى إيزيس وأوزوريس باسميهما المعروفين، يسمى ست بطيفون وتحوت بتوت⁴³

ويمكننا أن نشير في هذا السياق إلى أن الحكيم في عمله هذا قام بنقلها من عالمها الأسطوري إلى عالم الواقع من خلال القضايا الواقعية التي عرضها، وعليه فقد جرد أحداث مسرحيته من "جلالها الأسطوري القديم ومن معانيها الرمزية الخالدة مثل رمز الأسطورة لفكرة البعث بعودة أوزوريس نفسه إلى الحياة بعد تمزيقه إربا، ومثل الرمز لتوزيع أشلاء أوزوريس بين مقاطعات البلاد لتوزيع الخصب بينها... فإننا نعتقد أن توفيق الحكيم قد أحسن صنعها بنقله هذه الأحداث من عالم الأسطورة إلى عالم الواقع وبفضيله انتصار الخير في النهاية في شخص حوريس على زعم بعث أوزوريس من جديد كما تقول الأسطورة"⁴⁴

إن بعث أوزوريس من جديد في شخص حوريس مهّد له الحكيم من خلال العمل الذي قامت به إيزيس أن ربّت ابنها بخلق الأب وفضائله .

إذ تقول إيزيس: لا تنس أيضا أن حوريس هو ابن أبيه وأنت تعرف من هو أبوه

شيخ البلد: هو الخير والعلم والفضل... ولكن هل ورث حقا فضائل أبيه ؟

إيزيس: أرجو ذلك... لقد مكثت خمسة عشر عاما ألقنه كل شئ طيب في أبيه... ولم أكتف بهذا بل وضعت منذ صباه في أيدي توت ومسطاط... وقد تعهداه ومازالا يتعهدانه حتى الساعة بالتهذيب⁴⁵

وإذا عدنا قليلا إلى المسرحية، ونظرنا لشخصية أوزوريس نلمس شغف هذه الشخصية بالعلم وحب الاختراع والابتكار حيث يقول مسطاط عنه: ومن الذي يلومه؟! أنا آخر من يلومه... إن علمه وابتكاراته هي وحدها في نظري كما تعلم التي درت الخير على هذا البلد... لولاه ما استطاع الفلاح أن يزرع، ولا حضارتنا أن تكون، من ينكر أنه مخترع المحراث والشادوف ومشيد الجسور والقناطر... ولكن الأمر الذي لا ينكر أيضا هو أنه ترك شؤون الحكم إلى شقيق داهية ماهر يعمل ليصطنع الأنصار ويستميل أشياخ البلد ويتركهم يهبون الشعب⁴⁶

قدّم الحكيم الكثير عن شخصية أوزوريس من خلال مسطاط هذا الكاتب الذي "ظل مصمما في عناد على التزام مبادئ الخير والشرف ورفض التخلي عن هذه المبادئ في سبيل أية قضية مهما كانت خيرة عادلة مثل قضية منازل الخير للشر"⁴⁷

ومن العبارات التي رسمت ملامح هذه الشخصية ما يلي:

مسطاط: أردنا له الحكم عن طريق الشرف... أليس كذلك يا توت؟! لماذا تصمت الآن كلّ هذا الصمت ياتوت?... تكلم معي قليلا.... تكلم!⁴⁸

على عكس شخصية مسطاط المحافظة على مبادئها وإيمانها المطلق بها نجد شخصية شيخ البلد الذي يعمل على تحقيق أهدافه مهما كانت الطرق. فرأيناه داعما لطيفون في البداية، ليكون مع إيزيس ضد طفيون مقابل المال ومقال مصالحه الخاصة.

كما كان للشعب حضوره في المسرحية فكان حاضرا في بدايتها ونهايتها كما كان في هيئة المحكمة لمحكمة حوريس ثم الانقلاب على طفيون وإجلاس حوريس على عرش أبيه وفي موقف الشعب هذا يقول رجاء عيد "أما موقف الحكيم من الشعب فقد صورّه سلبيا منقادا مهرجا خانعا، نرى الشعب ممثلا في أهل القرية يتعرضون لظلم شيخ البلد رمز السلطة وسرعان ما نراهم حين يقبل إليهم معلنا تولي طيفون "الحكم" نراهم ببغاوات حمقى يرددون ما يقول"⁴⁹ وختم الحكيم مسرحيته باعتلاء حوريس العرش وهروب طيفون، وعدم قتله هنا لا يعود إلى الحوار اللفظي الذي يبين تسامح حوريس-بعد أن طلبت منه والدته عدم تلطيخ يديه بدمه- وإنما هو أن طيفون لم يقتل في الأسطورة وبقي إليها خالدا يعيش مع رع⁵⁰.

خاتمة:

قدّم الحكيم عمله المسرحي وإبداعه الفني الممثل في مسرحية إيزيس، عاكسا من خلالها تنوع المصادر التي استقى منها مادة موضوعه، فكان منها المصدر اليوناني والفرعوني، وقد عبّر الحكيم عن مختلف القضايا مستغلا الأسطورة الفرعونية القديمة من صراع على الحكم، انتشار للفساد والظلم وصوّر الصراع "بين الواقع والمثال في عالم السياسة وأنّ الشر لا يمكن أن ينهزم إلا بنفسه وسائله وأوزوريس وطفون يتوليان الملك في المسرحية ولكن أوزوريس يقوم ملكه على خدمة البشر بعلم واكتشافاته الحضارية ونزعت الخيرية، بينما يقيم طيفون ملكه على الغدر والخديعة والخيانة وتضليل الناس واستغلالهم"⁵¹

كما عبرت المسرحية عن نظرة الحكيم للمرأة فقد كانت إيجابية ومثلتها شخصية إيزيس الوفية المحبة لزوجها والأم الصالحة التي ربت ابنها حوريس بفضائل والده.

الهوامش

- ¹- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور. لسان العرب. دار صادر، بيروت-لبنان، ط2005، 4. المجلد السابع، ص: 181-182.
- ²- عبد التّور جبور. المنجد في اللغة العربية. دار المشرق، بيروت- لبنان، 2000، ط2. ص 667-668.
- ³- عبد الباسط سيداً. من الوعي الأسطوري إلى بدايات التفكير الفلسفي النظري. دار الحصاد، دمشق-سوريا 1995. ص: 19.
- ⁴- أمل مبروك. الأسطورة والإيديولوجيا. ص: 8.
- ⁵- عثمان حشلاف. التراث والتجديد في شعر السياب. دراسة تحليلية جمالية في: موارده، صوره وموسيقاه ولغته. ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر. ص: 44.
- ⁶- أحمد شمس الدين الحجاجي. النقد المسرحي في مصر (1876-1923). مركز جامعة القاهرة، ط2001، 3. ص: 179.
- ⁷- جمال مباركي. التّناس وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر. دار هومة، الجزائر، ص: 207.
- ⁸- ينظر: أحمد شمس الدين الحجاجي. الأسطورة في المسرح المصري المعاصر. ص: 474-475.
- ⁹- إمام عبد الفتاح إمام. معجم ديانات وأساطير العالم. مكتبة مدبولي. القاهرة-مصر. المجلد الثاني. ص: 204-205.
- ¹⁰- سناء شعلان. جدلية الأسطورة والأدب. الواشنطنطوني العربي، بتاريخ: 29 جانفي 2012، ص: 01، من الموقع: <http://www.arabwashimglonion.orabic/printicle>.
- ¹¹- تسعديت آيت حمودي. أثر الرمزية الغربية في مسرح توفيق الحكيم. دار الحداثة، الطبعة الأولى 1976. ص: 102.
- ¹²- ينظر: أحمد عثمان. المصادر الكلاسيكية في مسرح توفيق الحكيم. مكتبة لبنان، دارنوبار للطباعة. القاهرة-مصر. الطبعة الأولى، 1993، ص: 290-291.
- ¹³- أحمد شمس الدين الحجاجي. الأسطورة في المسرح المصري المعاصر. دار الثقافة، القاهرة- مصر، الكتاب الأول. ص: 35.
- ¹⁴- ينظر: محمد حسين الدالي. عملاق الأدب توفيق الحكيم. دار المعارف. القاهرة- مصر. ص: 47-48.
- ¹⁵- توفيق الحكيم. إيزيس. دار الشروق. القاهرة-مصر. ط2008، 1. ص: 9.
- ¹⁶- أحمد عثمان. المصادر الكلاسيكية في مسرح توفيق الحكيم. ص: 175.
- ¹⁷- سوزان عكاري. توفيق الحكيم "الأسطورة الشعبية في مسرحه. دار الفكر العربي. بيروت-لبنان. ط1. 2003. ص: 121.
- ¹⁸- سوزان عكاري. المرجع نفسه. ص: 121.
- ¹⁹- توفيق الحكيم. إيزيس. ص: 16.
- ²⁰- توفيق الحكيم. إيزيس. ص: 17.
- ²¹- توفيق الحكيم. إيزيس. ص: 18.
- ²²- أحمد شمس الدين الحجاجي. الأسطورة في المسرح المصري المعاصر. ص: 37.
- ²³- توفيق الحكيم. إيزيس. ص: 18.
- ²⁴- توفيق الحكيم. إيزيس. ص: 19.
- ²⁵- سوزان عكاري. توفيق الحكيم "الأسطورة الشعبية في مسرحه. ص: 122.
- ²⁶- محمد مندور. مسرح توفيق الحكيم. ص: 73.

- 27- سوزان عكاري. المرجع السابق. ص 121
- 28- توفيق الحكيم. إيزيس. ص 47
- 29- توفيق الحكيم. المصدر نفسه. ص: 67
- 30- توفيق الحكيم. إيزيس. ص 72-73
- 31- توفيق الحكيم. المصدر نفسه. ص 83-84
- 32- سوزان عكاري. توفيق الحكيم "الأسطورة الشعبية في مسرحه. ص 123
- 33- الرشيد بوشعير. المرأة في أدب توفيق الحكيم. الهالي للطباعة والنشر. ط 1. 1996. ص 43-44
- 34- ينظر: محمد مندور. مسرح توفيق الحكيم. ص 85
- 35- توفيق الحكيم. إيزيس. ص 88
- 36- ينظر: محمد مندور. مسرح توفيق الحكيم. ص 85-86
- 37- توفيق الحكيم. إيزيس. ص 117
- 38- توفيق الحكيم. إيزيس. ص 119
- 39- سوزان عكاري. توفيق الحكيم "الأسطورة الشعبية في مسرحه. ص 121
- 40- توفيق الحكيم. المصدر نفسه. ص 122
- 41- توفيق الحكيم. المصدر نفسه. ص 123
- 42- الرشيد بوشعير. المرأة في أدب توفيق الحكيم. ص 41
- 43- أحمد شمس الدين الحجاجي. الأسطورة في المسرح المصري المعاصر. ص 36
- 44- محمد حسين الدالي. عملاق الأدب توفيق الحكيم. دار المعارف. القاهرة-مصر. ص 49
- 45- توفيق الحكيم. إيزيس. ص 89-90
- 46- توفيق الحكيم. المصدر نفسه. ص 15-16
- 47- محمد مندور. مسرح توفيق الحكيم. ص 85
- 48- توفيق الحكيم. المصدر السابق. ص 93
- 49- رجاء عيد. قراءة في أدب توفيق الحكيم. منشأة المعارف. الإسكندرية-مصر. 2000. ص 72
- 50- ينظر: أحمد شمس الدين الحجاجي. الأسطورة في المسرح المصري المعاصر. ص 61-62
- 51- محمد حسين الدالي. عملاق الأدب توفيق الحكيم. ص 49